الطبيعة منطلقاً للرؤية في الأدب الإسلامي

بائية ابن خفاجة الأندلسي نموذجا

د. منجد مصطفى بهجت [1]

عاودني الحنين إلى ابن خفاجة، بعدما قرأت مقولة ابن الأعرابي: "إنما أشعار هؤلاء المحدثين مثل الريحان يشم يوما ويذوي فيرمى به، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر، كلما حركته ازداد طيبا" (الموشح، ص ٢٤٦)

من منا لا يعرف ابن خفاجة الأندلسي ؟

ليس قدره أقل من أشهر أعلام الشعر في المشرق أمثال أبي تمام والبحتري وأبي بكر الصنوبري، أو أعلام الشعر في الأندلس أمثال ابن دراج وابن زيدون إذ تصدَّر شعراء عصره في الأندلس، وذاع شعره وطار في الآفاق. ومن الطريف حقاً أن ابن قزمان (ت ٥٥٥ هـ) أشهر الزجالين بالأندلس صرح بأنه انصرف إلى الزجل بعد ما رأى شعره يقصر عن شعر ابن خفاجة. [2]

والأمر الثاني الذي يميز ابن خفاجة جمعه ملكة النثر إلى ملكة الشعر. وقلما اجتمعت الملكتان مع البراعة فيهما لدى الأديب الواحد. [3]

والأمر الثالث المميز للشاعر الناثر أنه كان ناقدا على نحو نجد أبعاده واضحة. [4]

ويختلف شاعرنا في إطار الإسلامية عن أمثاله من الشعراء الذين حاولوا أن يعبروا عن التصور الإسلامي في أشعارهم بأسلوب مباشر في لجوئهم إلى فن الاقتباس الذي ظل عنواناً واضحاً لتأثر الشعراء المسلمين بالقرآن الكريم، نجده يبتعد عن هذا الأسلوب، دون أن يبتعد عن القرآن الكريم في استلهام معانيه وألفاظه ودونك أبياته التي يقول فيها: [5]

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم
ولو تخيرت، هذا كنت أختار
لا تحسبوا في غد أن تدخلوا سقرا

فليس تدخل بعد الجنة النار

لا نجد اقتباساً (نصياً) مباشراً من القرآن الكريم، أو اقتباساً (إشارياً) غير مباشر. ولكن أحد رسل الأندلس (الخليلي) لما دخل على سلطان المغرب أبي عدنان بن السلطان أبي الحسن المريني أنشده أبيات ابن خفاجة كالمفتخر ببلاد الأندلس. فقال السلطان أبو عنان المريني: كذب هذا الشاعر يشير إلى كونه (جنة الخلد)، وأنه لو خيّر لاختارها على ما في الآخرة. وهذا خروج من ربقة الدين. ولا أقل من الكذب والإغراق. وإن جرت عادة الشعراء بذلك الإطلاق.

فقال الخليلي : يا مولانا بل صدق الشاعر لأنها مواطن جهاد، ومقارعة للعدو وجلاد. والنبي ﷺ يقول : " الجنة تحت ظلال السيوف" . فاستحسن منه هذا الكلام، ورفع عن قائل الأبيات الملام، وأجزل صلته ورفع منزلته .

ولعجز البيت الثاني رواية أخرى هي "وهذه كنت لو خيرت أختار" وهي بالمعنى نفسه، إذ يختار الشاعر جنة الأندلس ويفضّلها على جنات الدنيا. واستلهام معاني القرآن الكريم، متحقق حين يجعل الشاعر، الأندلس مكافأة لأهلها دون أن يصرح بسبب هذه المكافأة، ويؤكد هذا المعنى بمعنى آخر، أن النار لا تُدخل بعد دخول الجنة، ولكن الذي خطر على ذهن سلطان المغرب، فيما يبدو، المعنى القريب، وهو أن الشاعر فضل جنة الأندلس على جنة الآخرة، وهو مما لا ينسجم مع البيت الثالث الذي فيه ذكر للنار، بل يكون المراد تشبيهه جنة الأندلس بجنة الخلد التي أعدها الله لعباده يوم القيامة!

إسلامية الشعر:

وعلى كل حال، إن كنا نقبل لابن خفاجة هذه المبالغة أو نرفضها فإن المشكلة التي تواجه الدارس المسلم اليوم في أنه يقابل ثقلاً كبيراً نجم عن تجذر عميق وتشعب كبير، كما يرى الدكتور عماد الدين خليل [6]. في شبكة التصورات الخاطئة والمحاولات المضادة .. ويكاد يتفق

الباحثون على هذا الاتجاه .. ونسعى نحن - على قلة بضاعتنا - أن نصحح هذا الاتجاه ونثبت أن الأدب - شعره ونثره - سار جنباً إلى جنب مع مفاهيم الإسلام وتصوراته وأنه لا جفاء ولا هوة تفصل بينهما.

والطريق إلى تأطير الأدب بإطار الإسلام طويلة شاقة. وهذه الخطوة كما يرى أحد الباحثين بدأت منذ يوم بعيد . يوم بدأ الكتّاب والباحثون الإسلاميون يكتبون ويؤلفون في شتى فنون المعرفة من منظور إسلامي مَرِن، يعرف كيف يتعامل مع الدقائق والجزئيات لكي يعيد صياغتها مما يحقق الوئام والانسجام بينها وبين مطالب الإيمان الشامل الوضيء . (٧)

وكان المفهوم عندي حين تحدثت عن الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي "هو الانطباعات الشعرية التي تعكس تصور الإسلام للوجود والكون، وترسم هياكل الإنسان والحياة، وليس المقصود به دراسة الشعر الذي يتحدث عن الإسلام في عقيدته أو فلسفته بصورة مجموعة من المواعظ والإرشادات، والحديث بالمفهوم الأخير من الإسلام لكنه ليس كل الإسلام كما أنه ليس الغاية والهدف" . (٨)

وفي آخر الرسائل العلمية التي قدر لي أن أطلع عليها في عام ١٩٩١ أي بعد عشرة أعوام من محاولتي السابقة، حُدِّد مفهوم الأدب الإسلامي بأنه ذلك الأدب الذي يصدر عن فكرة وعاطفة صدوراً كلياً أو جزئياً مباشراً أو موحياً باللغة العربية، عن التصور الإسلامي المنبثق من القرآن والسنة للوجود، ولا يحدّه مذهب أدبي، وإن أفاد من معطيات المذاهب الأدبية والفنية أو الفكرية التي تلتقي مع قيم الإسلام في إنسانيتها الأصلية وامتدادها الزمني . (٩) والدراسات التنظيرية كثيرة ولا يعنينا تتبعها جميعاً في هذا المقام .

قصيدتان بائية ورائية :

لقد وقف عدد كثير من الدارسين للشعر الأندلسي عند شعر ابن خفاجة فأشاروا إلى براعة الشاعر وتفوقه في قصيدته، وكشفوا عن مناط البلاغة والجودة حتى إن الدكتور محمد رجب البيومي يجد في بائيته ذروة اكتمال شعر الطبيعة في الأندلس، وقد بلغ التشخيص فيها مبلغاً لا نجده إلا عند كبار الشعراء في الشرق والغرب . (١٠)

غير أن هؤلاء الدارسين قد فاتهم أن يلتفتوا إلى النزعة الإيمانية التي يصدر عنها الشاعر في قصيدته فقد وقف ابن خفاجة موقف المتحنث المتعبد في محراب الطبيعة. كانت قصيدة الجبل نسقاً شعرياً متكاملاً ذا شعاب، ولو ذهب جميع ما قاله ابن خفاجة من الشعر، لكانت معجزة إبداعه ودليل تفوقه . (١١)

ونرى من المناسب أن نشير إلى التكوين النفسي الذي هيأ الشاعر لهذه التجربة فهو فضلاً عن ثقافته الدينية التي ترد الإشارة إليها في ترجمته كان ذا حس مرهف، وخوف عميق من الله سبحانه وتعالى، مع خشية من الموت . فقد روى الضبي أنه كان يخرج من جزيرة شقر وهي كانت وطنه أكثر الأوقات إلى بعض تلك الجبال التي تقرب من الجزيرة وحده، فكان إذا صار إلى جبلين نادى بأعلى صوته يا إبراهيم تموت ! يعني نفسه فيجيبه الصوت حتى خر مغشياً عليه (١٢) ، والسبب الذي يدعونا لاختيار هذه القصيدة مثالاً رائعاً للنص الشعري - في هذا المجال - أن القصيدة تأتي مستهلة بـ " وقال في الاعتبار" (١٣) أما قصيدته الرائية في القمر فيمهد لها بقوله "وقال وقد طلع عليه القمر في بعض ليالي أسفاره، فجعل يطرق في معنى كسوفه وأقماره، وعلة إهلاله تارة وإسراره ولزومه لمركزه مع انتقاله في مداره ، معتبراً حسب قوة فهمه واستطاعته، ومعتقداً أن ذلك معدود في عبادة الله وطاعته، لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴿١٩٠﴾ ﴾ (١٤)، فقال وقد أقام معاينة تلك النصبة ، واستشراف تلك الحالة والهيئة مقام المناجاة لمن خلا بنفسه يفكر، ونظر الموفق يعتبر " . (١٥)

وللقصيدتين مقام بين قصائد الديوان، ولهما تفرد وخصوصية، يشي بها هذا الاستهلال للقصيدتين الذي يحدد أبعاد النص ويؤطره ، وأن الشعر لا يندرج في شعر وصف الطبيعة وما أكثر هذا اللون من الشعر في ديوان الشعر العربي، وفي ديوان ابن خفاجة مما قصد به الوصف المجرد . (١٦)

بينما تأتي القصيدتان في سياق الاعتبار والتدبر - كما نص على ذلك - فهما إذن نفحتان إيمانيتان ونسمتان روحانيتان ، ويبدو أن خلوته بالكون كانت كثيرة وطبعية .

وهي تمثل مرحلة من مراحل حياته . ينفي عن نفسه الإقبال على مجالس الأنس. وما فيها من شراب .. بل هو مقبل على الخلوة بنفسه . تلك الخلوة التي بدت فيما رواه الضبي آنفاً. وفي أبياته السينية . [١٧]

لقد آمن ابن خفاجة بأن الإنسان مغادر، مهما طالت به الحياة . ودار البلاء تجمع الأحباب في القبور شباباً وأصدقاءً وأصحاباً وأقراناً، إذ كلّ صائر إلى التراب إلى حيث الحشر والجزاء . [١٨] وهذه الحقيقة أطال الوقوف عندها. يقرؤها في صفحة الكون في ذرّات الجبل وقرص القمر. ونتوقف عند تجربته في قصيدته البائية التي قالها في الاعتبار. واتخذ الجبل رمزاً من رموز التدبر والتفكر - والكون كله يدعو إلى هذا التدبر - تأتي بنفس طويل في ثمانية وعشرين بيتاً يقول فيها : [١٩]

بعيشك هل تدري أهوجُ الجنائب
تخبُّ برحلي أم ظهور النجائب
فما لحت في أولى المشارق كوكباً
فأشرقتُ حتى جبتُ أخرى المغاربِ
وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي
وجوهَ المنايا في قناع الغياهبِ
ولا جارَ إلا من حُسام مصمم
ولا دارَ إلا في قتود الركائب
ولا أنس إلا أن أضاحك ساعةً
ثغور الأماني في وجوه المطالبِ
بليل إذا ما قلت قد باد فانقضى
تكشّف عن وعدٍ من الظن كاذبِ
سحبتُ الدياجي فيه سود ذوائبٍ
لأعتنق الآمال بيض ترائبِ
فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس
تطلّع وضّاح المضاحك قاطبِ
رأيتُ به قطعاً من الفجر أغبشاً
تأمّل عن نجمٍ توقّد ثاقبِ

●●●

وأرعن طماح الذؤابة باذخ
يطاول أعنان السماء بغاربِ
يسد مهبَّ الريح عن كل وجهةٍ
ويزحمُ ليلاً شهبه بالمناكبِ
وقورٍ على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالي مطرقٌ في العواقبِ
فتيٌّ على طول الزمان وربما
جلا لك عن فرّع من الثلج شائبِ
يلوث عليه الغيمُ سُود عمائم
لها من وميض البرق حُمرُ ذوائبِ

●●●

أصختُ إليه وهو أخرس صامتٌ
فحدثني ليل السرى بالعجائبِ
وقال: ألا كم كنتُ ملجأ فاتك
ومعقلَ أوّاه تبتّل تائبِ
وكم مرّ بي من مدلج ومؤوّبٍ
وقال بظلي من مُطيّ وراكبِ
وكم لاطمت نكبَ الرياح معاطفي
وكم زاحمت خضر البحار جوانبي
وكم سفرت لي من شموس وأقمر
وباتت تراني من عيون كواكبِ

●●●

فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
وطارت بهم ريح النوى والنوائبِ
فما خفق أيكي غير رجفة أضلعٍ
ولا نوح ورقي غير صرخة نادبِ
وما غيّض السلوان دمعي وإنّما
نزفتُ دموعي في فراق الأصاحبِ
فحتى متى أبقى ويظعن صاحبٌ
أودّع منه راحلاً غير آيبِ
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً
فمن طالع أخرى الليالي وغاربِ
فرحماك يا مولاي دعوة ضارعٍ
يمدُّ إلى نعماك راحةَ راغبِ
فأسمعني من وعظه كل عبرةٍ
يترجمها عنه لسان التجاربِ
فسلّى بما أبكى ، وسرّى بما شجا
وكان على ليل السرى ، خير صاحبِ
وقلتُ وقد نكّبت عنه لطيةَ
سلامٌ، فإنّا من مقيمٍ وذاهبِ

وعلى نحو فريد من تكامل عناصر التجربة الفنية تأتي القصيدة . في وحدة عضوية حية نابضة بالحركة، من مقدمتها حتى شوطها الأخير. وقد درج الدارسون على الوقوف عند أبياتها التي تمثل وصف الجبل وإسقاط أبياتها الأولى التي حسبوها مقدمة تقليدية لا صلة لها بجوهر التجربة الشعرية.

ووجه الصواب وعينه . أن تجربه الشاعر جاءت في أربعة مشاهد واشواط يأخذ بعضها برقاب بعض:

ـ الشوط الأول: البيت ١ ـ ٩ يمثل رحلة التأمل الذاتي.

ـ الشوط الثاني: البيت ١٠ ـ ١٤ يمثل الوصف الخارجي للجبل.

ـ الشوط الثالث: البيت ١٥ ـ ١٩ يمثل الوصف الداخلي للجبل.

ـ الشوط الرابع: البيت ٢٠ ـ ٢٨ يمثل خلاصة الرحلة، والجواب على السؤال الصعب الذي طرحه في الشوط الأول.

أشواط القصيدة :

وفي الشوط الأول نجد حالة الاضطراب النفسي، القلق والتوتر اللذين كان عليهما الشاعر وأديا به إلى الضرب في الأرض والسياحة بين الشرق والغرب، وحيداً فريداً، إنه شتات الأمر الذي يستعيذ منه النبي ﷺ، وهو يقع للناس كما وقع للشاعر وهو يصوره ويستهله بالمساءلة، ولا يصلح أن يحمل البيت على القسم، لعدم جواز القسم بغير الله : (٢٠)

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب
تخبُّ برحلي أم ظهور النجائب
فما لحتُ في أولى المشارق كوكباً
فأشرقت حتى جُبْتُ أُخرى المغارب
وحيداً تهاداني الفيافي فأجتلي
وجوه المنايا في قناع الغياهب

ويتمثل هذا الشوط الأول ، في تسعة أبيات إذ يدلفُ بعدها إلى الشوط الثاني وصف المظهر الخارجي للجبل في ضخامته وجلاله، يسبغ عليه من ملامح الكائن الحي ، فيشخص منه شيخاً وقوراً قد عركته الأيام وزادته حنكةً وتجربةً. يسوق هذا الوصف في خمسة أبيات تبدأ من قوله :

وأرعن طمّاح الذؤابة باذخ
يطاول أعنان السماء بغاربِ

إلى أن يقول:

أصختُ إليه وهو أخرس صامت
فحدَّثني ليلُ السُرى بالعجائبِ

لكن ما علاقة ذلك التمهيد بالحديث عن الجبل؟

إن القصيدة تمثل صورة صراع الفرد في خضم الحياة، وما يحيط بها من أحداث وهي تشف عن أزمة داخلية عانى منها الشاعر، ومخاض عسير قاسى منه، وانتهى إلى أن يلوذ بمجالي الطبيعة الفسيحة الرحبة. ولم يكن ابن خفاجة بدعاً في ذلك فقد ورد عن السلف الصالح أنهم كانوا يضربون في الأرض، ويتحنثون في محراب الطبيعة.

وفي هذا المشهد نجد الأضداد بين وقور وفتي في البيتين الثاني عشر والثالث عشر، وقور لأنه مطرق في العواقب، وفتي لأنه ثابت القلب، رابط الجأش، وشبابه يدلك عليه سواده، وقد زانه فرع من الشيب، وهو الثلج الذي يعلو رأس الجبل، فهو شاب وخط شعره المشيب، وتحس بضخامة الجبل إذ يعطينا أبعاده:

ـ في الطول والارتفاع: يطاول أعنان السماء بغارب .. ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب.

ـ وفي العرض والاتساع: يسد مهب الريح من كل وجهة.

ـ وتجد التشخيص أو التجسيد في وقور ومطرق وفتي.

والصورة من أقوى الوسائل للتعبير عن الشعور تعبيراً مؤثراً، ومن الصور الحية الرائعة لعظمة الجبل وجلاله، ولعلها أروع ما في المشهد الثاني :

يلوث عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمر ذوائبِ

ويبلغ مداه وهجِّيراه في البيت الرابع عشر ، إذ تجدك أمام سيد من الأسياد، وشيخ من الشيوخ علاه تاجٌ .. أليست العمائم تيجان العرب ؟ وسواد العمامة يشي بأنها عمامة خاصة! وهو بعد أن يعطينا ملامح هذا الإنسان في هيبته وحكمته، يجلس إليه مجلس التلميذ

للأستاذ، أو مجلس المريد للشيخ، ويصيخ سمعه لحديثه في مشهد جديد، هو الشوط الثالث من القصيدة .

ومن مفردات المشهد الثالث : أخرس، لم يكتف بها فأضاف إليها (صامت) فإذا كان الجبل الذي لاذ به بهاتين الصفتين، فمن سيحدثه إذن؟ إنه ليل السرى الذي أنابه الجبل ليتحدث عنه. ويستخدم أسلوب التكرار في الاستفهام فتأتي (كم) الخبرية خمس مرات في القصيدة وقد خرجت عن الاستفهام وأفادت الكثرة والمبالغة.

ويسوق لك المتناقضات في الحياة، والصور المتقابلة:

- الفاتك القاتل / والأواه المتبتل.
- المدلج / والمؤوب.
- المطي / والراكب.
- الشموس / والأقمر.
- نُكب الرياح / وخضر البحار.

إن هذا الجبل يحتمل بين جوانحه قلباً ينبض بالحياة ويستشعر ما يجري حوله من تغير وتبدل، وقلبه يختلج ويضطرب أسى وحزناً على تغير الأحوال، وحلول الآجال ، وأن كل ذلك العدد العديد، والجم الغفير، قد انطوى وتولى، وانصرف وانحذف!

فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وأنت ترى سلطان الموت وجبروته، هو المفسر لكل ما تقدم ، وطية الردى ليست هينة، ونائبات الزمان ذات سلطان.

وهذا الشوط الذي هو الرابع في المشاهد يمثل خلاصة التجربة بعد تلك الأسئلة، ثم ها هو ذا يعتمد على أسلوب القصر والحصر بما وإلا، وما وغير، وما وإنما:

- فما كان إلا أن طوتهم يد الردى.
- وما خفق أيكي غير رجفة أضلع.
- وما غيّض السلوان وإنما.

ويعود إلى أسلوب الاستفهام بـ (متى) في بيتين :

- فحتى متى أبقى؟
- وحتى متى أرعى الكواكب؟

كل هذا على لسان الجبل الناطق الصامت، الذي يعيد إلى ذاكرتنا حديث الرسول ﷺ : " كفى بالموت واعظاً ... "[٢١] والجبل ينطق عن تجارب الأحقاب والأمم التي انتهت إلى الموت، وانظر إليه كيف يرفع كف الضراعة مسترحماً الله سبحانه وتعالى، ويمد راحته بالرغبة والأمل، وكان حديث ليل السُرى بالعجائب مترجماً عن لسان التجارب، وتحقق الرحلة غايتها: سلّى الجبل، وسرى بالبكاء والشجو، وكان على ليل السُرى خير صاحب .

ويزمع الشاعر على الرحيل والعودة إلى وطنه، بعد ذلك الدرس البليغ . ولا يُستبعد أن يكون هذا الجبل نفسه واحداً من الجبلين اللذين كان الشاعر ينادي عندهما بأعلى صوته : " يا إبراهيم تموت " ثم يخرّ مغشياً عليه.

وتقترب مشكلة الشاعر من أن تجد حلاً تقر بلابله، وتُبل أوامه، وتشفي غليله.

رحل الشاعر لينتهي إلى حقيقة حاضرة غائبة ... أن الناس أجمعين مقيمٌ وذاهب!

أضواء وظلال :

لقد كانت تجربة فريدة في عوالم شعر الطبيعة الممرعة، فقد كشف لنا الشاعر صلةً متينةً ، ووشيجة قوية بينه وبين الكون، وهي تمثل إدراكاً خاصاً ، وشعوراً متميزاً منه بما حوله في هذا العالم الفسيح، وإنك لتدرك وأنت تقرأ القصيدة إدراكاً واضحاً شاملاً ، النواميس والسنن التي حدثنا الله سبحانه في كتابه المبين .[٢٢]

إن ذهول بعض الدارسين المحدثين عن أمثال هذه التجارب يجعلهم يُكبرون تجارب شعراء أوروبة المحدثين، ويستهينون بتجارب شعرائنا على نحو ما نجد عند أحدهم حيث يعترض على وصف أحمد شوقي لابن خفاجة بأنه شاعر الطبيعة، وعلى الرغم من أنه لا يجد في أشعاره شعراً يشف عن وجد بالطبيعة وتعلق بها !! وأن الجيد من أشعاره نادر![٢٣] فمثل هذا الحكم يفتقد مبدأ الاستقراء، إذ النسبة الغالبة من ديوان ابن خفاجة في شعر الطبيعة، فكيف إذن يتعلق شاعر ويجد بالطبيعة وجداً إذا لم يمنح ديوانه هذا القدر الكبير من شعر

الطبيعة ؟

لقد شهدنا أن أبرز ما في تجربة ابن خفاجة أنها ليست نظرة عشوائية للكون بل تأمل وتفكر وتدبر، وأنها لا تضمر شعوراً بالضياع . وعدم المعقولية. بعد ساعات الحيرة التي تنتاب الشاعر ولكن سفينة الشاعر ترسو وتستقر. ونفسه إلى قرار. فيعود عوداً حميداً ويجد الجواب من الجبل. وتنتهي الحيرة والقلق اللذان قصد بهما الجبل إلى سكينة وهدوء .

" لقد آن للوئام أن يعود بين السماء والأرض ، بين الإنسان والعلم . بين العقل والروح . بين الجزئي والشامل. بين الزائل والأبدي وبين الأرض الضيقة والكون الكبير. وأن يرجع الإنسان ثانية إلى بارئه الذي أنشأه أول مرة ودفعه إلى الأرض واستعمره فيها . لكي تكون كل جزئية من جزئيات سعيه في الأرض وكل عمل من أعماله فيها منذور لله " . (٢٤)

وفي القصيدة يبدو تصور الإسلام للكون والطبيعة من حيث إنهما مصدران للتدبر والتفكير والطبيعة تجري بقضاء الله وقدره، مشمولة بعنايته ورعايته، والغوص في أعماقها غرض أساسي لإدراك الحقيقة المطلقة. القوة المدركة المدبرة. قوة الله سبحانه وتعالى .

والقصيدة تمثل قمة البناء الفني . والنسيج المتلاحم ، لا تكاد تنفصل لحمته عن سداه. بناء شامخ بلغ القنى والذرى . والقلل والقمم. وتجربة فنية متكاملة العناصر يقدمها الشاعر بطريقة متوائمة مع المنظور الإسلامي للكون والطبيعة . لا تجد فيها تناقضاً أو جفاءً ، مع ما يقدمه القرآن الكريم . في تأملاته الحية عن الطبيعة، وأنها مصدر من مصادر الإيمان بالله سبحانه وتعالى، ويمكن أن تختصر القصيدة أحد مفاهيم الإسلام في نظرته إلى التاريخ الذي الأصل فيه التماس العبرة، واقتباس الدروس من تدوين الحدث التاريخي .

الهوامش

١- أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا .

٢- تنظر مقدمة ديوان الشاعر. (تح د. سيد مصطفى غازي، منشأة الإسكندرية. ١٩٦٠). ص ٥ .

٣- إحكام صنعة الكلام، ابن عبد الغفور، (تح محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦)، ص ٣٩ .

٤- ينظر بحثنا: ابن خفاجة الأندلسي والنقد الأدبي، حولية كلية الدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، العدد ١٩، سنة ١٩٩٦، ص ٦٧ - ٩٥ .

٥- نفح الطيب، (تح د. إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨)، ١/ ٦٨٠ وتنظر دراستنا الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦، ص٢٧٢ .

٦- مدخل إلى إسلامية المعرفة، سلسلة إسلامية المعرفة ٩، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨١، ص ٢٦ .

٧- نفسه، ص ٥٧ .

٨- الاتجاه الإسلامي، ص ٢٣ .

٩- مجلة المسلم المعاصر، العدد ٦٧ - ٦٨، ١٩٩٣، ص١٦١ .

١٠- الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر، ص ٦٨ .

١١- نفسه، ص ٦٨ .

١٢- بغية الملتمس، رقم ٥٠ .

١٣- ديوانه، ص ١٦٢ .

١٤- آل عمران، ١٩٠ .

١٥- ديوانه، رقم ٨٠ .

١٦- ديوانه، رقم ١٠٧ .

١٧- ديوانه، رقم ١٤ .

١٨- ديوانه، رقم ١٦٥ .

١٩- استفدت من روايات القصيدة التي جاءت في حاشية الديوان فأثبتها في متن القصيدة بما ينسجم مع الغرض النقدي لهذه الدراسة، وهي في الديوان ص ٢١٥ - ٢١٨ .

٢٠- علق الدكتور حسين خربوش على البيت مشيراً إلى فن الالتفات في ضمير (الكاف) في كلمة (بعيشك) يدل على جلية الحال وقرينة الكلام، وكأنه قال: "أفدي بعيشي من إخاله، والمعنى فديتك". ابن خفاجة وقصيدة الجبل، بحث في مجلة المنارة، آل البيت، ١٩٩٦/١، ص ٥٣، هـ١١ .

٢١- جاء الحديث في كنز العمال، المتقي الهندي، ٣١٨٧ و٤٦٦١، وفي تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني، ١٩٩٤، أنه كان نقش خاتم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتردد هذا النص في مصادر أدبية أخرى .

٢٢- مدخل، ص ٦٣ .

٢٣- الشوقيات المجهولة ، (دار المسيرة ، بيروت ، ١٩٠٣) ، ٢٩/١، هامش ١ .

٢٤- مدخل، ص ٥٩ .